شراء المعاني من أسواق الرحمات

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

في موسم الحج الماضي، ومع روح العربية الحديثة وقلبها المخلص وفكرها اللهم وأمنيها الأول عبد الرحمن عزام بك، رحت أبتاع لنفسي معاني من أرض محمد، صلى الله عليه وسلم، مع ذلك الركب الإنساني العظيم الذي يقصد كل عام أسواق الرحمات، يسافر لها من كل صوب عبر البحر والصحاري والجبال، ويخرج لها بائعاً كل شيء إلا قلبه، مودعاً كل عزيز من أهله وماله ووطنه.

وكيف لا أخرج إلى تلك الأسواق وقد رأيت الكساد والبوار والخسار تضرب كل تجارة في أسواق العالم غير هذه السوق التي عرف تجارتها وأرباحها قصادها وروادها فقصدوها على بعد الدار وقلة الزاد؟

لقد أقبلوا بأجسامهم من كل صوب نحو مركز الدائرة الذي يسافرون إليه بالروح كل يوم خمس مرات

إنها أرباح من المعاني التي لا تنفد والطمأنينة والسلام النفسي يدفع لها هذا الركب ما يجمع أفراده من حطام الدنيا وما يدخرونه ينفلونه عن طيبة خاطر راضية نفوسهم بالشقات والصعاب...

إنهم يشقون الجسد ويبذلون المادة لإراحة الروح ونشدان السلام وطلب الحسنى أمام ديان الخلائق ...

ذهبوا يعرضون نفوسهم وقلوبهم في تجرد وحفاء وشعثة في أسواق الرحمات لعل الله يشتريها منهم ويمسح عنها أوضار الإثم. يلوذون بالمطهر الأول الذي جعله الله أول بيت وضع للناس لتزكية النفس وتأهيلها للدنو منه والعلو إليه بعد الهبوط من جنة السماء ... يطوفون حوله في ابتهال وتبتل وفناء وسط الإنسانية الشقية التي دمرتها الآلام ... ويطيعونه طاعة مبصرة وعمياء في كل ما فرضه عليهم في تلك الرحلة ... ويتنقلون بين يديه في مجالي الطبيعة، يصلون له في هياكلها ملبين في الأسحار والإصباح والظهيرة والضحى والأصائل ...

يصعدون الهضاب والجبال، ويهبطون الوديان والرحاب في استغراق وابتهاج وبكاء، يبتغون إليه الوسيلة ويطرحون أجسامهم في مطارح الطبيعة أمام نظره العالي لعله يرحم ضعفهم وإخلاصهم ويمسح بيده الكريمة على قلوبهم.

يتعرضون لنفحاته من ظهيرة يوم عرفة، ويبيتون له بمزدلفة وينحرون ويتركون له في منى. ويعزمون على ترك الشر في (شارع الشياطين!) يرجمونهم في فكاهة وجد وابتهاج ... ثم يقبلون بعد ذلك إلى حياة المدن في أم القرى ويشهدون منافع لهم من التعارف والائتمار والاتجار ...

ثم يرمون بأبصارهم إلى الشمال نحو مرقد الجسد المطهر الذي مدّ ظلال رحمة الله على هذه الأمة المحرومة المعزولة ثم مدها على العالم وأوسع له في آفاق الروح ...

وعند قبر محمد صلى الله عليه وسلم اتخذت مجلسي أول قدومي عليه، وقد أغمضت عيني وفتحت خيالي يستحضر الصور التي شهدها التاريخ ووعتها ذاكرتي من حياته الشريفة وتعاليمه الهادية ووحيه العالي. وأحسست حين جلست أن العالم كله يجلس مني تحت قدمي هذه القمة البشرية التي لم تطاولها سماء أخرى ... وأنني تحت ظلال أنضج ثمرة أدركت أسرار النوع البشري وصفوة معانيه ونهاية استعداده وحدود قواه ... أخرجها رب الإنسانية ومكرمها من الأمة الوسط التي يلتقي فيها الشرق والغرب، وتتصل بزنوج الجنوب وبيض الشمال وصفر الشرق وحمر الغرب وتأخذ منهم جميعاً أحسن ما فيهم جميعاً ...

وهذا هو قانون الله في جميع الأشياء: يجمع أسرار كل شيء في مركزه و«عقدة» ثمرته ...

فلتفهم هذا العربية الحديثة في نهضتها الجديدة لأداء رسالتها الثانية.

أنا مؤمن عن طريق عقلي أكثر من إيماني عن طريق قلبي. ومع ذلك حين وجدتني أقترب من قبر «محمد» القطب الذي

تدور بدورته روحي وتهتدي بإشعاعه نفسي أحسست قلبي يهتز ويختلج اختلاج الباكي ووجداني يطغى على عقلي فأحبذ تقبيل المقصورة الشريفة واستلامها وأخف من منع الحراس للناس وأقلسف لهم أن الحب يدفع إلى أكثر من ذلك ... ثم يستقر الأمر فأعود إلى القبر في هدوء الإجلال وسكينة الإعظام لهذا المقام أن يدور عنده همس لغط ، أو يدنو منه مقترب بالجرأة والاقتحام كما يفعل العوام وأشباه العوام الذين لا يملكون عقولا وإنما يملكون قلوباً ...

وشهدنا أول احتفال بالهجرة في دار الهجرة على الطريقة المصرية في التكية المصرية ، وخطب فيه عزام (بك) خطبة من خطبه التي هي مزيج من الروح والسياسة والتجربة والعلم والتاريخ فكان صوته أول نغمة جديدة من بيان أهل هذا الزمان ترتفع في جو المدينة التي ولد فيها فجر المؤاخاة الكاملة بين الأوس والخزرج من الأنصار ، وبين المهاجرين والأنصار ، وبين المسلمين وأهل الكتاب والمسالمين من الجاهليين ، في تلك المعاهدة الأولى التي لا يمكن أن يبنى سلم عالمي دائم إلا على مثلها وروحها الذي يؤمن بالإنسانية الواحدة وبالحرية والمساواة والعدالة في الوطن الواحد وفي الأوطان المختلفة ويأبى إلا أن يكون الدين لله .

ولِيَاذُ الزنوج والأجناس الملونة واعتزازهم بهذه المشاهد المقدسة التي تتجلى فيها المساواة المطلقة شيء عظيم ! وخاصة في هذا العصر الذي جار فيه « الرجل الأبيض » واغتر بلونه ، وبنى على الفروق السطحية فلسفة ظالمة ، استعبدت الأحرار ، وأذلت الكرامة الإنسانية ، وأهدرت لباب القلوب ، واعتزت بالقشور والجلود ، وعاثت بالفساد في ديار الناس ولم تحاول محاولات جدية أن ترفع مستوى الحياة في بلاد الملونين ليلحقوا بالقافلة الإنسانية السريعة المراكب ، بل على العكس أثقلت أرجل غيرها بالقيود وعوائق الفساد ليتخلفوا عنها ويحتاجوا إليها دائما ويكونوا معها « حيوانات بشرية » لحمل أثقالها وجلب مغانمها .

ولكن رب البشرية بالمرصاد ، فقد خرب ديار الطغاة ، وجوعهم وأهلك حرثهم وعمرانهم ونسلهم ، ووقفهم على هاوية الدمار التام ليتردوا فيها عما قريب إذا لم يراعوا أمانة الاستخلاف في الأرض ورعاية حرمات الناس وحقوقهم الطبيعية .

إن الأجناس المتخلفة تدرك بفطرتها ما في طبيعة المسلمين من رحمة بها واعتراف بحقوقها وغيرة على حرماتها وحب لتقدمها ، ولذلك تقبل على الإسلام ، وعلى شعيرة الحج بنوع خاص ، لتشعر لأول مرة في هذا العصر بقيمة ذاتها ، واكتمال حقوقها واعتراف الدنيا بإنسانيتها .

ومن يرى الإنسانية في ثيابها البسيطة ، وحفائها وانتعالها حول الكعبة وبكائها لربها واصطفافها جميعا على قدم المساواة ، يبيع نفسه لخدمتها وإنصافها ومكافحة الطواغيت والمظالم التي تهدر كرامتها ، وتذل عزتها .

ولن أنسى ذلك الشيخ الأسود الذي وقف أمام باب الكعبة يبكي ويبلل لحيته ويجأر بالدعاء وينادي : اللهم اجمع قلوب المسلمين كما جمعت أجسامهم ! ولا ذلك الهندي الساجد في نشيج ودموع بجوار مقام إبراهيم ...

ولا تلك الزمرة من زنوج نيجريا في ثياب الإحرام البيضاء تتلو وراء المطوف دعاءها في رطانة ولكنة ومع إتلاع الأعناق ومشية العزة والمسرة والشعور بالحضارة الروحية ولقاء قلوبهم مع قلوب غيرهم من الناس في ثقة ومحبة .

ولا تلك الأرتال السائرة على أقدامها على طريق مكة والمدينة أياماً وليالي تقصد زيارة المدينة ، بعد أن جاءت من أعماق القارة السوداء [إفريقية] ، والقارة العجوز [آسيا] يحدوها الحب ، ويسوقها الإلهام إلى أرض التحرير والعتق من ظلمات الوثنيات والمثنويات والسحر الأسود والرهبة من القوى الجبارة المبهمة التي تطالعها من طلعات هاتين القارتين الناهضتين !

ويكفي أحدهم جوار الكعبة عاما ليحصل علما من جميع أجناس الأرض لم يكن ليجده عمره في دياره ولو عاش أبد الآبيد .

إن الحج نسك عجيب تفرد به الإسلام ، وجعله مثارا لعالم فني « سينمائي » ورمزي بجانب ماله من الآثار التعبدية والاجتماعية .

وكم ترك من آثار عميقة في حياة المسلمين وحياة الناس جميعا وسير التاريخ العالمي إذ كان بمثابة الرياح التي تحمل البذور من مكان إلى مكان لتنتج خليطا من الأنواع ، فهو قد حمل الشخصية الإسلامية المتفرقة بافتراق البقاع على اللقاء في معهد واحد . وكما كان سببا لاجتماع القبائل العربية في الجاهلية على معناها العام ووحدتها وعرض أمجادها ومفاخرها في أسواق الدين والتجارة واللغة ، كذلك يحمل العالم الاسلامي بأممه المختلفة على اللقاء الدائم في عصور التاريخ . فالعالم الاسلامي مدين له بجانب القرآن بوحدته الفريدة على مدى الأجيال .

وإنه لعمل عظيم في جذور الوحدة العربية والوحدة الاسلامية والوحدة العالمية .

عبد المنعم خلاف

وقلّتْ بها القِلّةُ الصابره رَحى الموْتِ جدّت بهم دائره
على الأرض من حولهم ظلمة غبار ورعـد وبرق هنا
ومن ها هنـا كرّةٌ سافره

وخاض الوغى الفارس المُسْلَمُ يسربله . نقعهـا والدم
بيمناهُ رايتهـا جعفرٌ يثور به عِرقُهُ الهاشميُّ
كما ثَـوَرَ القَسْوَرُ الضَّيْغَم

تحدّى الحتوفَ وأهوالها وقد هاجت الحرب أبطالها
وما زُلزلَ القِلةُ المؤمنونَ وإن غصّ بالأكثرين الفضاء
وزلزلتِ الأرضُ زلزالها

تنقّل فى حرّها جاهـدا صبوراً لِلأوائها صامدا
إلى أنْ تصدّى له فاتكٌ فأهـوى على يده ضارباً
بسيفٍ أطنَّ به الساعِدا

تماسكَ للخطب لم يَجزعِ وكرَّ الكميُّ ولم يرجعِ
بيسراه رايته ، واليمين على الأرض ساعدها فالِذَهْ
تموت ، من البطل الأروَعِ

وظلتْ بقيّتها نازفـهْ وقد صخبت حوله العاصفهْ
فلله وثبتـه إذ يفورُ دم قـد سقى الأرض منه
ومن كَتْبِ كثرةٌ زاحفه

مضى مُنْهكاً يتلقى الرماحا وصمم ليس يخاف اجتياحا
تراه ورايتـه فى الشمال كنسر يَجر الجناحَ المهيضَ
ويرفع كيما يطـير جناحا

وفتيان صدقٍ مضوا حوله وقـد رقّ كل فؤادٍ له
يذودون عن بطل نازفٍ يقـل الثيل له فى الرجال
وما فاقـه فارس قبـله

جليدٌ مع النزف لا يستطارُ وفى وجهـه للحمام اصفرارُ
تسـلّلَ حتى دنا دارعٌ فـما زال يضرب حتى هَوت
من الليث بعـد اليمين اليسار

فهلْ فزعَ الحرُّ واستسلما ولم تُبق منه السيوف دما ؟
تقـدم محتضناً ممسكا بزنديه رايتـه فى الصفوف
وظل الكميُّ بهـا معلما

ترنح مما به الفـارسُ وما وهنَ الأسدُ البابسُ
وظلَّ على صهوات الخطوب يلاقى الرَّدى فِلذةً فِلذةً
وما فلَّ عـزْمٌ له هاجسُ

وأسـلم مهجتـه للظُّبا كؤوسَ المنيَّـة مُستعذبا
فياهول مصرعه والسيوف تهاوى على جسمه القَسوريّ
وما يملك الليث أن يضربا

تكلم مُرتجـزاً مُنشدا «لدين الهدى قلّ منى الفدا
الا خسىء الكفر والكافرون جزائى غـدا جنة المتقين
وأعظم بجَنّتهم موردا »

تبسّمَ للموت إذ أغمضـا على وجهـه لمحات الرضا
فتى بات للمجـد أنشودة إذا ذُكِرَ المؤمنون الفداء
على الدهر ذكرٌ له أوْمضا

تقشّع من فوقه العِثْيَرُ وآماق أصحـابه تُمطِرُ
جراح ثمانون فى جسمه ومن عَضُدَيه نجيعٌ يسيل
ومن عاتقيـه دم يقطر

بقيّةُ لَيْثٍ رَدَاه استبقْ وجسمٌ بتلك الفيافى مزَقْ
تجاوز فى البأس جهد الخيال وأبلى بَلاءَ امرىء صادق
وأين له النـد فيما صـدق

نَعَاهُ النبيُّ وفى قلبـه بكاءٌ عليـه وبشر به
وصلى عليـه الرسول الكريم وقال وفى مقلتيـه الدموع
لمن علم الرزء من صحبه :

« هنيئاً له نفسـه الراضية . بجنات عدن غدت ثاوية
سيبدلك الله بالساعـدين جناحين يا ابن أبي طالب
فتسبح فى الجنـة العالية »

وزاد الرسول : « كأنى أرى هناك الشهيد الفتى النيّرا
فى جنـة الخلد رهط يطير ملائكة بينهم جـعفر
يهز الجناحين مستبشرا »

شهيـد فؤادى له يطرب وإنى به الشاعر المطرب
أجَدِّدُ ذكراه مُستوحياً فيملأ قلبى وحىٌ لهـا
يضىء كما بزغ الكوكب

الخفيف

الذى أجراها على يد الرسول هو الله فاطر الفطرة ومرسل الرسول .

والعلم أسرع إلى التسليم بمثل هذا الدليل إن ثبت لديه وقوعه ، لأن العلم أعرف وأبصر بعجز الإنسان عن خرق عادة الفطرة وسننها فى الكون . فابتلاع العصا لعصىّ السحرة وحبالهم ، وإبراء الأكمه والأبرص فى لحظة ، وإحياء الموتى بكلمة — هذا وشبهه يعرف العلم ويعرف الناس أنه مما لا يقدر عليه البشر . فلو ثبت لدى العلم وقوعه فى ظروفه لسلّم العلم بدلالته .

لكن إذا قُدر أن يبحث العلم الأديان عن طريق بحث ظاهرة النبوة فسيجد أن العقبة فى سبيله هى أن معجزاتها قد مرت وانقضت فهو لا يجد سبيلا إلى بحث شىء منها . إلا معجزة واحدة لرسول واحد على دين واحد : إلا القرآن ، معجزة الإسلام على يد محمد بن عبد الله . لقد ذهبت المعجزات كلها وبقى ، وتغيرت الكتب وحرفت ولم يتغير هو ولم يحرف . وعلى أى حال فهو هنا معنا ومع العلم والعلماء لمن شاء أن يبحث أو يفحص . فلو قدر للانسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام ديناً يثبت للفحص العلمى ، إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم وتبقى إلى ما شاء الله لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص ، وليهتدى البشر بفحصها إلى الله ، وليعلموا عن طريقها أن الإسلام هو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس : جعل كتابه عين معجزته ومعجزته عين كتابه ليكون حفظ الدين وحفظ معجزته أمراً واحداً سواء ، ولتدوم حجة الله على الناس .

ودلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله لا من عند بشر أمر تنبهر منه العقول إذا نظرت فيه نظرة علمية صادقة . ففيه أولا التحدى : تحدى العرب وتحدى البشر أن يأتو بسورة من مثله . وهذا التحدى وحده دليل عجيب على أنه ليس من عند محمد . فلو علم محمد من نفسه أنه قائله ما اجترأ وهو ما هو من العقل ، وهم ما هم من الفصاحة ، أن يتحدى العرب بله البشر أن يأتوا بمثله ، ثم بعشر سور من مثله ، ثم بسورة ، ثم يجعل أقصر سورة لا تزيد على عشر كلمات !

فهذا من غير شك دليل عجيب . وأعجب منه عجز العرب خصومه — وقد كانوا جميعاً خصومه فى الأول — أن يقبلوا هذا التحدى ويهدموا محمداً ودعوته بالإتيان بسورة من مثل سور القرآن القصار .

وعجزهم ذلك جاء مصدقاً لنبوءة تنبأها لهم حين تحداهم أنهم لن يفعلوا . ولم يفعله أحد من البشر إلى الآن . فاعجب من كلمتين اثنتين — وان تفعلوا — فامتا بصدقهما المستمر معجزة باقية على الزمن

وعجز العرب والبشر عن سورة قصيرة من القرآن أمر غريب عجيب يجعل من القرآن الكريم ألف معجزة فى معجزة ، لأن القرآن قدر أقصر سوره آلافاً من المرات .

وسر هذا العجز هو نفس سر عجز البشر عن خلق شىء مما حولهم فى الفطرة . فالقرآن والفطرة كلاهما من عند فاطر الفطرة بل هو دين الفطرة وكتابها . وقد جهد الناس قديماً وحديثاً فى الوقوف على سر إعجاز القرآن فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يغرف غارف من بحر وإن ظن ظان أنه قد بلغ . وليس إعجاز القرآن الناسَ هو كل دلالة القرآن على أنه من عند الله .

ليت من يقوم بالقرآن وللقرآن يحفظه ويفحصه ، ويجلو برهانه للناس من جديد . ليت المسلمين لم يشغلوا عن القرآن بكلام البشر ، ولم يحاولوا أن يتأولوه حين يجدونه غير نازل على أهوائهم وعلى ما يظنونه المناسب للعصر الحديث . ليت فى علماء الإسلام جماعات تلقوا صنوف العلم الطبيعى وتمكنوا من علوم القرآن ليجلوا للإنسانية القرآن على النمط العلمى الذى هو من نمط النظر القرآنى وفيه للانسانية فى هذا العصر العلمى متنع .

ليت المسلمين ينتبهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ، ويعدوا للدعوة إلى الله وإلى القرآن عدتها . فالإنسانية فى حاجة إلى دين الفطرة ، وما المسلمون بأقل حاجة من الإنسانية إلى تبصير بالإسلام

محمد أحمد الغمراوى

إعلان

يوجد بإدارة التوريدات بوزارة المعارف عدد محدود من نسخ الجزء الثانى من آثار أبى العلاء — وتباع النسخة للراغبين بمبلغ جنيه مصرى واحد .

٤٦٩٣